شعور بالضياع

كان عبد الهادي قد انتهى من تناول العشاء مع زوجته فمد ساقيه المتعبتين على الحشية حيث يجلس وفجأة قال:

- لست أرى مدحت الاّ ذاهبا الى دمشق أو عائدا منها.. ماذا يفعل هناك؟
- لست أدري.. انه لايحدثني بشيء.
- ان قلبي يحدثني بأنه يسير سيرا مشؤوما!

وتنهدت المرأة بأسى ولم تجب.. ولم يلبث أن طرق الباب فقام عبـد الهـادي متثاقلا ليرى من الطارق بينما أخذت زوجته في جمع الصحون ومـسح المـشمع الصغير الذي كان يستخدم كمائدة على الأرض قرب الحشية في الأيام البـاردة.. وهرعت الى المطبخ لتحضر المكنسة وتلملم بعض الفتات قبل أن تمد الفراش على الأرض للنوم، فسمعت زوجها يعول بصوت يحمل كل الفجيعة والألم.. وأحـست بقشعريرة في جسدها ورمت المكنسة، واندفعت الى الخارج وصدرها يخفق بعنف، فرأته يطبق بيده على رسالة ويلطم رأسه بالباب، ويترنح ثم يمسك بالمقبض كي لا يسقط.. وهتفت به تسأله ما الخبر وقد أحست بغثيان في قلبها ومعدتها.. ولكنه كان يعول دون الإلتفات اليها.. ولم تكن تستطيع القراءة لتعرف ماذا تحمل الرسـالة، وببطء انبثق في ذهنها أن أحدا قد مات.. واصـطكت ركبتاهـا وأخـذت تنـشج بالبكاء..

- من؟ من؟
- أختي، أختي، قتلوها وابنها!.. أطلقوا عليها الرصاص وهـي تعـود مـن الحقل.. اليهود ذبحوهم في غزة كالأغنام..

وغطت المرأة وجهها بيديها وهي تشهق بالبكاء وترتعش كقشة في مهب الريح:

- يا ويلي عليها صبية!

وحملق فيها عبد الهادي بشرود غائب الوعي كأنما يأبى أن يصدق.. ولكنه لـم يلبث الخبر الفاجع أن لطمه مرة أخرى.. وجذبته زوجته من ذراعه الى الغرفـة، فأكب على الحشية وأفلت لبكائه العنان..

ولما جاء مدحت في تلك الليلة الى البيت عائدا من دمشق وعلم الخبر من أخته، جلس في غرفته حزينا مطرقا دون أن ينبس بحرف، وهو يشعر بأنه يسير في تيه وقد أطبق عليه الفراغ والوحدة والظلام..

* * *

كان طوال الطريق وهو عائد من دمشق يفكر أتراه في نشاطه الحزبي يخدم قضية وطنية عادلة؟ أهو يعمل لعزة سوريا واسترداد فلسطين؟ أم يغررون بـه لخدمـة المستعمرين وأهدافهم؟ لقد أخذ الشك يغزو قلبه منذ أن أصـغى الـى اعترافـات الأستاذ كاظم في المحكمة.. ولكنه لم يلبث أن نزه رؤساءه عن هذه الجرائم، وعلّل الأمر أنه كذب وتلفيق فرض عليهم بالضغط والإرهاب.. ولكن الرؤساء لم يلبثوا أن انشقوا على أنفسهم، وراحوا يؤكدون صدق الإعترافات، ويتهمـون بعـضهم بعضا بالإنحراف.. وأصبح قلقا موزع النفس لا يدري من يتبع وأيـن هـو مـن الحقيقة ومن الهدف الوطني، ويحس بنفسه كأنما قذف به الـى بحـر لا يحـسن السباحة فيه تتدافعه الأمواج ولا يقوى على التحكم بها..

وتذكر رفاقه في الحلقة. انهم أناس طيبون، ولقد اتصل معهم بوشـائج الألفـة والمحبة فكان من العسير عليه أن يقتلعهم من حياته بسهولة ويسر، وهو الـشاب العاطفي ذو الطبيعة المخلصة الألوفة..

وأحلامه في انقاذ فلسطين.. واقباله الشغوف على التـدريب فـي المعـسكر.. أيمكن أن يكون مخدوعا واهما؟

وعمله؟ ان كل وجوده مرتبط بالحزب.. وأحس بما يشبه شـعور زوج محـب غيور حين تساوره الظنون في زوجته التي وثق بهـا.. انـه شـعور بالـضياع، وبالوحدة، بالكرامة المهيضة.. ومع ذلك فما زال في حناياه بقية ايمان، بل لم يكن يجرؤ أن يفقد كل الإيمان..

ولم يغمض لمدحت جفن في تلك الليلة.. لقد عاودتـه ذكـرى التـشرد عـن فلسطين.. عاودته ذكرى أشلاء بني قومه التي نثرت على أرض فلسطين عـزلاء من السلاح.. لم تكن معركة، بل مجزرة لشعب أعزل.. لقد وقف ذات يوم أمـام

طفلة مشوهة وأمها بين أنقاض بيت دمر.. كان في الطفلة رمق من حياة فحملها الى حيث الإسعاف ولكنها ماتت بين يديه.. انه لا يزال يسمع حشرجتها الأخيرة.. لقد عاودته الذكرى بعد أعوام عشرة وكأنها البارحة.. كانـت جوانحـه تـشتعل غضبا حينذاك ولا تزال.. ان ما حدث في فلسطين لم يحدث في بلد آخر على وجه الأرض.. أن يجلى شعب بأكمله من بلاده بغدر لامثيل له، وبمؤامرة اسـتعمارية حيكت خيوطها طوال سنوات الإنتداب، بل قبل هذا!

ان حقده على الإستعمار يستعر في فؤاده، حقدا لا يعرف الراحة والهدوء فكيف اذا كان زعماؤه يتعاونون حقا مع هذا الإستعمار ويسخرونه لتنفيذ مآربه؟ لو تأكد له ذلك.. لو تأكد لديه..

كان مدحت يفكر ووجهه يتقلص بأعنف ملامح الأسى ولم يفد ما أحرقـه مـن لفائف في تهدئة أعصابه.. كان يعرف أخت عبد الهادي حين كان صـغيرا فـي العاشرة يساعد صديقه في حمل صفائح الماء من العين الى البرميل فـي صـحن الدار.. انه يذكرها بوجهها الصبوح وثوبها الذي تحسره عن ساقيها كـي تغـسل أرض الدار.. وكيف كانت ترشقه بالماء معابثة.. كانت تكبره ببضعة أعوام ولـم تلبث أن حجبت ولم يعد مدحت ليراها، ولكن صورتها لم تزل في خياله.. أيمكـن أن تكون قتلت؟

وأرهف مدحت السمع الى صهره عبد الهادي في الغرفة المجـاورة يـئن فـي جوف الليل وينتحب، والى أخته تغمغم وتبكي، وأحس بما يشبه طعنة سكين حـاد يغرز نصله في أضالعه، وأخذ ينتحب..

وفي بكور اليوم التالي ذهب الى معسكر التدريب كعادته ووقف ينتظر دوره في الرماية.. وكان المقدم حامد والدكتور محسن واقفان يشاهدان التدريب.. ولم يلبث أن أخذ مدحت مكانه أمام الدريئة الثالثة، وصفّر الدكتور محسن فدوت الطلقات.. ووضع مدحت بندقيته ونهض حين دوى الصفير مرة أخرى لإعـلان النتـائج.. وتقدم الكتور محسن من الدرايئ، وأخذ يلوح بيده مشيرا الى الطلقات الـصائبة.. وكانت الدريئة الثالثة هي الوحيدة التي أصابت الرصاصات فيها جميعا الهدف في نقطة واحدة.. وابتسم الدكتور محسن، وأشار الى مدحت أن يتقدم.. فجاء مـدحت

وحيا على الطريقة النازية ووقف ينتظر الأوامر.. وربت الدكتور محـسن علـى كتفه وقال:

- انتظرني غدا في مكتب جريدة الحزب الساعة السادسة مساء..

* * *